

## يوغوسلافيا

( ١ )

من ألبانيا عبرت الحدود إلى يوغوسلافيا، كنت متحمساً جداً لزيارة يوغوسلافيا ومتابعة تجربتها الفريدة عن قرب، كذلك كنت مهتماً بأن أدخل إليها عن طريق الحدود البرية، فقد كانت كل رحلاتي السابقة الإثنتي عشرة عن طريق الجو أو البحر، وهذه أول مرة أقوم بزيارة دولة عن طريق حدودها البرية مع دولة أخرى.. من مدينة شكودرا شمال ألبانيا قطعت السيارة خمسة وسبعين كيلو متراً في خلال ساعة واحدة، وعلى الحدود ودعنى مرافقى الألباني وداعاً حاراً وعبرت البوابة الألبانية وعليها علم ألبانيا ذو النسر الأسود ومشيت حوالي عشرين متراً هي المنطقة الفاصلة بين البلدين، ثم دخلت بوابة يوغوسلافيا وهي مدخل جمهورية مونت نجر و أولى جمهوريات يوغوسلافيا المتاخمة

لألبانيا واستقبلتني مرافقة من هناك بابتسامة عريضة وكلمات حلوة، ثم طلب منى شرطى الحدود فتح حقائبى وتفريغ ما بها أمامه للتفتيش.. وقلت أنا مستعد لفتح حقائبى فعلاً، ولكن أعتقد أنه من الصعب أن أفرغ كبل ما فيها أمامك، لأنها ملابسى وكتبى.. وعلى العموم تستطيع أن تضع يدك داخل الحقيبة وتقلب فيها كما تشاء، فهذا حقمك.. ولم يقتع الشرطى بذلك ودارت مناقشة طويلة وحادة بيننا، وطلبت من المرافقة أن تشرح له أننى ضيف على الحكومة اليوغوسلافية بدعوة كريمة من اتحاد الصحفيين وإنه لا يصح أن يعاملنى بهذه الطريقة، وحاولتْ هى من ناحيتها أن تشرح له الحكاية وتخفف من حدة الموقف دون جدوى، وأخيراً اقتنع أن يدخل يده ليقطب فى بعض الحقائب بعد أن اضطرت إلى تفريغ البعض الآخر كما أراد، قالت مرافقتى: أرجو أن لا تقضب فهذه هى مهمته وبخاصة وإنك قادم من ألبانيا.. كما أن رجال الشرطة عندنا لا يجبون أن يمدوا أيديهم داخل حقائب الزوار تأديباً منهم واحتراماً لممتلكات الزوار الخاصة.

. اهتم رجل الشرطة اليوغوسلافى بالتفتيش عن الكتب، وعندما وقع فى يده كتاب باللغة الألبانية ملأت الدهشة وجهه واضطرب وتصفح الكتاب ثم أخذه وتناقش مع زميل له وهو فى حالة ارتباك.. ثم سألتنى عن محتوى الكتاب ولماذا أحضرته معى؟

قلت هذا كتاب عن الفولكلور الألبانى وقد أهدها إلى مدير

معهد الفولكلور هناك لاهتمامى بهذا الفن الشعبى الرائع، ولأن اسمى مكتوب فيه كأحد الأجانِب المهتمين به.. وتحدث مع المرافقة بلغتها ثم تحدث تليفونياً مع أحد المسؤولين وأخيراً ابتسم لى واعتذر عما حدث، وساعدتنى المرافقة السيدة «دانا» فى حمل الحقيب ونقلها إلى السيارة الخاصة التى ستذهب بنا إلى الفندق.

قلت لمرافقتى ما هى حكاية ألبانيا معكم؟

قالت.. أنت تعلم أن هناك جالية ألبانية تعيش عندنا فى يوغوسلافيا ونحن نخاف من المنشورات والكتب والصحف والمجلات التى تبث فى الجالية روح الثورة والتمرّد على النظام ومحاولة الانفصال، ولا شك أنك سمعت عن أحداث «كوسوفا» الأخيرة وهو الإقليم الذى تعيش فيه أكبر جالية فى يوغوسلافيا وهى الجالية الألبانية، وعلى العموم ستعرف الكثير عن هذه المشكلة خلال زيارتك، ثم ابتسمت دانا.. قائلة.. المهم حمد الله بالسلامة وأهلا بك فى يوغوسلافيا أرض السلام والحرية، ونحن نعتبر أنفسنا محظوظين بالنسبة للدول الاشتراكية فتجربتنا تجربة خاصة تتبع من داخلنا، وأهم ما نملكه هو حريتنا التى نعتز بها.

وصلنا إلى الفندق الذى سأنزل فيه وهو من أكبر فنادق جمهورية مونت نجر و اسمه (سارنا جورا) وللوهلة الأولى أحسست بالحركة والحيوية فى هذا المجتمع الجديد المتفتح الحر،

الناس تملأ الشوارع، الفندق مشغول ربما لعدة أسابيع، وجوه المواطنين تنم عن حب الحياة والحركة السريعة التي تتفق وطبيعة النصف الأخير من قرننا العشرين.

وتركتني دانا المهذبة لأستريح على أن نتقابل مساء في فيلتها في الريف حتى تعرفني وتقدم لى زوجها السيد «فيليب جانكوفيك» الفنان الأول فى جمهورية «مونت نجر» ومعناها الجبل الأسود ونتفق على برنامج الزيارة.

## ( ٢ )

فى المساء التقينا وكان لقاء حافلا، وسرعان ما تصادقت على فنان مونت نجر و الأول «فيليب جانكوفيك» وهو فنان رقيق، ورسام بارع، وعاشق للموسيقى الشرقية، وقد أسعدنى بأن أدار لى أكثر من اسطوانة موسيقى شرقية ومصرية كما طلب منى تسجيل نسخة من الأشرطة الموسيقية التى كانت معى، وكان من الطبيعى أن يكون حديثنا عن عمله وهو الفن التشكيلى، وقد شاهدت معظم لوحاته التى تجمع بين الواقعية والمدرسة السيرىالية أى فوق الواقعية وسألته:

أى المدرستين تفضل؟

الحقيقة أنى كأى فنان بدأت بالمدرسة الواقعية ورسمت

«البورتريه» ثم تدرجت لأرسم لوحات سيريالية، وعندى أن الفنان يستطيع أن يعبر عن المدرستين لأن الفنان يحب التغيير ويفضل أن تكون له أكثر من طريقة لتفريغ شحنة الفن والمشاعر المتباينة التي تختلج بها نفسه.

وايتسم الفنان وهو يقول: إننا هنا في يوغوسلافيا نتمتع بالحريية الكاملة في التعبير، وربما لا تجد دولة اشتراكية تعرف المدرسة السيريالية في الفن، ولكننا هنا نعرف ونمارس كل المدارس في التعبير ولا رقيب علينا إلا الضمير.

وسألته ما هي اللوحة التي تعتز بها؟

لا شك أن كل لوحة في وقتها تمثل اعتزازًا معينًا وفي معرضي الأخير عرضت ثلاثين لوحة تجمع بين المدارس المختلفة وكلها أعتز بها، لكن هناك لوحة أعتز بها اعتزازًا خاصًا وهي التي اقتناها الزعيم الراحل تيتو وهذا شرف عظيم لى بالطبع.

واشتركت السيدة دانا في المناقشة، وبعد أن انتهينا من حديث الفن والاستماع إلى الموسيقى المختلفة وبخاصة الشرقية التي يفضلها صاحبنا الفنان الرقيق «فيليب جانكوفيك» بدأت دانا تمارس عملها كمرافقة لى في خلال زيارتى إلى جمهوريتها، وسألتنى عن الأماكن التي أفضل زيارتها والمعالم التي أود مشاهدتها؟

قلت: إننى دائماً أحب التعرف إلى الشارع فهو نبض أى دولة، وهو المعبر الحقيقى عن الرجل العادى، عن آماله وأحلامه وآلامه أيضاً.

قالت: إذن لنجعل برنامج الغد هو الشارع نهراً ثم الشارع ليلاً.

على الرغم من أن جمهورية مونت نجرو هى أصغر جمهوريات يوغوسلافيا الست ولا يزيد عدد سكانها على خمسة وثمانين ألف نسمة إلا أن شوارعها تتسم بالحركة والنشاط وشبابها يميل إلى المرح والتفاؤل، وتستطيع أن تجد أى سلعة تحتاج إليها من أى بلد فى العالم، فهنا يوجد انفتاح غير عادى، أو على الأقل لا تجده فى أى دولة اشتراكية أخرى، انفتاح ليس فى مجال التجارة وحسب، بل فى كل المجالات، فقد شاهدت الانفتاح الفنى ووجود كل المدارس الفنية التشكيلية حتى السيربالية، وهذا انفتاح تجارى يملأ الشارع، بالإضافة لوجود أحدث الأزياء والموضات التى ترتديها المرأة اليوغوسلافية الجميلة، هذا بالإضافة أيضاً للانفتاح الفكرى على العالم ووجود الكتب الأجنبية، وقد سعدت عندما تحدث إلى أحد المكفوفين عن الدكتور طه حسين وكيف أنه قرأ له بعض مؤلفاته التى ترجمت إلى اللغة اليوغوسلافية.

والشعب اليوغوسلافى محب من قلبه للشعب المصرى وبينما كنت أبتاع بعض الشيكولاتة لابنتى وابنى من أحد المتاجر

لحظت فتاة بأنى لا أستطيع التفاهم مع البائع فتدخلت على الفور وقامت بالترجمة بينى وبين البائع باللغة الإنجليزية فأخرجت لها ما فى جيبى من عملة يوغوسلافية لكنها لم تجدها كافية فأخرجت من جيبها بعض القروش لتكمل الحساب ولما أعطيتها ديناراً لتفكه وتأخذ ما دفعته ابتسمت قائلة هذا شىء بسيط وأنتم المصريون أصدقاء لنا، لا تشغل بالك بهذه النقود القليلة.

والانفتاح على العالم يشمل برامج وأفلاماً سينمائية وتليفزيونية من كل بلاد العالم يعرضها التليفزيون اليوغوسلافى، وفى جمهورية مونت نجر فقط يرى المواطنون برنامجين إيطاليين بالإضافة إلى ٢٥ فى المائة من البرامج والأفلام المقدمة مستوردة من مختلف أقطار العالم أمريكا، هولندا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، الاتحاد السوفيتى، بولندا، مصر وغيرها، ويتعاون التليفزيون هناك مع مائة دولة فى هذا المجال، ولا شك أن هذا التعاون يرقى بالمواطن إلى مستوى العالمية ليعرف مشاكل العالم، وفنونه وميزاته بالإضافة إلى عالمه الذى يعيش فيه فالعالم كما قال شاعر ألمانيا الأشهر «جيتته» قريقى.

والشارع الرئيسى فى جمهورية مونت نجر ويختلف فى أثناء النهار عنه فى الليل، فبينما السيارات والأتوبيسات تمر به نهراً إلا أنها تتوقف ليلاً لإعطاء فرصة للمواطنين حتى يتاعوا ما يريدون بعيدين عن زحام السيارات أو الخوف على أطفالهم

منها وذلك لأن المرور يمنع مساءً في الشارع وينطلق الأطفال وسطه دون خوف، بل وتضع بعض الكافيتيريات مقاعد وسط الشارع للراحة وتناول المرطبات أو الساندوتش.

وهذه التجربة، تجرية منع مرور السيارات من بعض التسوارع الرئيسية التجارية فترة معينة في أثناء النهار أو الليل معروفة في أوربا، وهي تريح المواطنين العاديين وتحافظ على سلامتهم وسلامة أطفالهم، وحبذا لو نفذت في مصر في شوارع وسط البلد خصوصاً، فهذا سوف يحقق نتائج طيبة للجميع.

وفي نهاية اليوم الذي خصناه للشارع وتعرفت فيه على جمال الطبيعة والنظافة والنظام، دعنتى دانا في اليوم التالى وهو يوم العطلة الأسبوعية يوم الأحد إلى قضاء يوم جميل مع أسرتى الصغيرة فى أحد مصايف «مونت نجرو» جمهورية الجبل الأسود الرائعة ومما شجعتنى على قبول الدعوة أنها كانت دعوة عائلية وطلبت أن يكون اللقاء فى السادسة صباحاً حتى نستطيع التمتع باليوم كله من أوله إلى آخره وافترقنا على أمل اللقاء.

### ( ٣ )

قبل الموعد بربع ساعة، فى صباح يوم الأحد كانت دانا موجودة بالفندق تبحث عنى، وقد أعدت كل شىء لقضاء يوم

سعيد، وقابلتني بابتسامتها العريضة ووجهها المشرق قائلة: إننا محظوظون اليوم جداً فالطقس جميل والشمس مشرقة إنها فرصة نادرة لنسبح في البحر ونجلس في استرخاء على الشاطئ، وركبنا السيارة مع أسرتي وأسرّة دانا إلى مدينة بودفا السياحية.. جرت بنا السيارة حوالى ساعة ونصف ساعة على طرق ممهدة ناعمة صاعدة هابطة بين الجبال المرتفعة العالية إلى أكثر من ألفى متر ومع ذلك لم نشعر بصعود وهبوط السيارة ولا بتعارج الطريق الملتوى بين الجبال، فالجبال كلها خضراء جميلة والسائق يعرفها جيداً، قطعت السيارة حوالى ٦٥ كيلومتر حتى وصلنا إلى بودفا، المدينة السياحية الجميلة التي تقع على البحر الأدرياتيكي الشديد الزرقة والمتعدد الشواطئ والتي تمتد عليها الكافيتريات والمطاعم المختلفة الحجم والطراز متناثرة في كل مكان وبخاصة مطاعم الأسماك التي يفضلها زوار الشواطئ، وبعد جولة في المدينة دعتنا دانا لزيارة القرية السياحية «سان ستيفانو» ذات الطابع الخاص والتي تقع في وسط البحر مشكلة شبه جزيرة، دخلنا القرية وهي بناء واحد متكامل يشمل حارات صغيرة مرتفعة ومنخفضة وبه أربعائة شقة وبعض حجرات صغيرة، والقرية تخضع لإدارة واحدة، وأنت تستطيع تأجير شقة في هذه القرية، والشقة تتكون من حجرتين أو ثلاث أو أربع مع الحمام والمطبخ، والأضواء خافتة مباشرة وغير مباشرة، والشرفات تطل على الأدرياتيكي.. لا شك أن الشقة رائعة متكاملة لا ينقصها شيء، الموقع الممتاز، والهواء

المنعش والشمس المشرقة التي تدخلها من كل جانب، وقد أعد المطبخ بكل أدواته حتى يمكن لأسرتك أن تستخدمه وتطهى طعامك حتى لا تزيد مصروفاتك الكثيرة في هذه القرية، وهي لا شك منطقة استجمام أكثر من ممتازة، وبعد أن شاهدنا الشقة وتفقدناها سألت مشرف العلاقات العامة في القرية عن قيمة إيجار الشقة الواحدة الصغيرة أعني حجرتين وحمام ومطبخ فقط في الليلة الواحدة؟

فقال: خمسمائة دولار. (هذا اللقاء كان في عام ١٩٨١ ولك أن تتصور الأسعار الآن)!

قلت: أنا أسأل عن الثمن في الليلة الواحدة لا في الأسبوع أو الشهر؟

قال الرجل مبتسماً: نعم خمسمائة دولار في الليلة الواحدة مع الإفطار أيضاً.

قلت: يا بلاش وكمان مع الإفطار رخيصة جداً... وخانتني انفعالاتي فارتسمت علامات الدهشة على وجهي ولاحظ الرجل فأسرع قائلاً: على العموم هناك حجرات صغيرة للشباب وهي أرخص بالطبع وتصلح لعروسين أو صديقين وثنهما في الليلة الواحدة دون وجبة الإفطار أربعين دولاراً فقط.. مدهش.

وقلت لزوجتي التي نظرت إلى مبتسمة: لا تندهشى نحن أغنى

من كل هؤلاء لأننا نملك الستر وهو يساوي ملايين الدولارات، لا مجرد خمسمائة أو ألف فقط.

وأخذ مسئول العلاقات العامة بالقرية يشرح لنا تاريخها وكيف أنها كانت مجرد مساكن للعامة فقط ورأت الدولة أنه يمكن استغلالها سياحياً استغلالاً يدر عليها ملايين الدولارات، فأوجدت مساكن لسكان القرية ونقلتهم إليها واهتمت بعمل لمسات جميلة مشجعة للسياح على الاسترخاء التام وقضاء الصيف والاستجمام، وأطلقت على القرية اسم سان استيفانو نسبة إلى اسم الكنيسة التي كانت تقع في قمة الجبل.. وأضاف الرجل أن القرية الآن ملتقى أصحاب الملايين ونجوم السينما والملوك والرؤساء ورجال الأعمال، وأخذ يعدد لنا أسماء لامعة نعرفها وأخرى لا نعرفها ممن ابتسم لهم الحظ وقضوا بعض لياليهم فيها، وأكد سيادته أنه من الصعب العصور على شقة أو حجرة للإيجار في القرية خصوصاً في فترة الصيف لكثرة المقبلين عليها، وذكرني حديث الرجل بأزمة الإسكان في مصر مع الفارق.

وأدهشني اهتمام الدولة وهي دولة اشتراكية شيوعية بإعداد مصايف خاصة لكبار رجال الأعمال الرأسماليين لينفقوا فيها ملايينهم.. وهكذا تستفيد الاشتراكية من الرأسمالية، وهذا يدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن أخيه الإنسان مهما اختلفت المذاهب والممارس والفلسفات.

تركنا القرية السياحية وقالت دانا: هيا بنا نسمح على هذا الشاطئ الجميل، وكان الشاطئ جميلاً حقاً، المياه صافية شديدة الزرقة، وتعجبت لأنى لم أجد رملاً على الشاطئ بل زلط زلط من كل الأحجام والألوان والأنواع، سبحان الله حتى الزلط جميل وناعم ومختلف الأشكال لدرجة أنك تظن وكأن أحد الفنانين التشكيليين قد داعبه بأنامله حتى أصبح على هذه الصورة الجميلة الملونة، وسبحنا فى مياه الادرياتيكي الرائعة الصافية الجذابة إلا أن الزلط شدنى أكثر فأخذت أسبح قليلاً وأجلس مسترخياً على الزلط كثيراً، بل اهتمت أخيراً بجمع بعض حبات الزلط حتى تكون ذكرى فى بيتى من هذه الرحلة... ونظرت إلى زوجتى نظرة كلها استنكار وتعجب، ولم أهتم.. مجنون مجنون، أليس الفنون جنون أو العكس، أفهمها كما يعجبك. وبينما كنت أجلس على الشاطئ إذا بابتنى نورا تهرول إلى.. بابا... بابا إلحق.. تعالى شوف البنات عاملين ايه.

قلت: إيه الحكاية؟

قالت: البنات نايمين على الشاطئ شبه عرايا صدورهن عارية تماماً.. قلة أدب.

قلت لها.. أنت عارفة أننا فى اوربا.. مجتمع آخر مختلف عن مجتمعنا.. القيم والأخلاق وحتى العيب يفهمونه بطريقة اخرى.. ولا بد أن نحترم عادات المجتمع الذى نحن فيه الآن حتى

لو اختلفت مع. قيمنا.. ولم يرغبنا أحد على أن نعمل مثلهم.  
أما ابني ناجي فكان سعيدًا بالمنظر الذي رآه لأنه كان غريبًا  
عنه، ومن الطريف أن المناقشة احتدت بين الاثنين بين معارض  
وموافق.

وعندما سمعت دانا الحديث وترجمت لها ما قالته ابنتي ابتسمت  
قائلة.. هناك شواطئ أخرى كثيرة ولكن لها شروط في الدخول.

سألت وما هي الشروط؟

أن تكون عاريًا تمامًا، فهذه شواطئ خاصة للعراة.

قلت أرجو ألا تقولى هذا لابنتى حتى لا تطلب منى مغادرة  
بلدكم فورًا.

( ٤ )

عدنا إلى الفندق بعد قضاء يوم سعيد في أحضان الطبيعة  
الرائعة الجبال الهادئة الناعسة، وبعد أن سبحنا وأكلنا وشربنا  
واسترخينا وتمتعنا بالطبيعة الحية المختلفة الألوان التى عشقها  
فيلسوف فرنسا جان جاك روسو وطالب بالعودة إليها.

فى الفندق كانت هناك رسالة تنتظرنا، قرأتها «دانا» وقالت  
لنا.. للأسف لا بد أن تغادروا مونتجرو غدًا مبكرين إلى بلجراد  
فسوف ينتظرونكم فى المطار صباحًا.

وفي اليوم التالي كان كل شيء معدًا جاهزًا لرحيلنا إلى العاصمة بفضل السيدة (دانيا) ونشاطها الواضح وصبرها على العمل ليل نهار، إنها تحب عملها جدًا وهي صورة مشرقة للمرأة اليوغوسلافية المتحضرة التي تتفاني في عملها من أجل سمعة بلادها.. وجاءت في الساعة الخامسة صباحًا بدراجتها الخاصة لتودعنا وتطمئن على راحتنا، وكان وداعًا حارًا.

في المطار ساعدنا سائق السيارة التي أقلتنا من الفندق في حمل الحقائب، وإحضار تذاكر الطائرة ثم ودعنا بالأحضان والقبلات مما أزعج ابنتي نورا وابني ناجي واعرضا قائلين لي..

كيف تترك السائق يعانق والدتنا ويقبلها؟

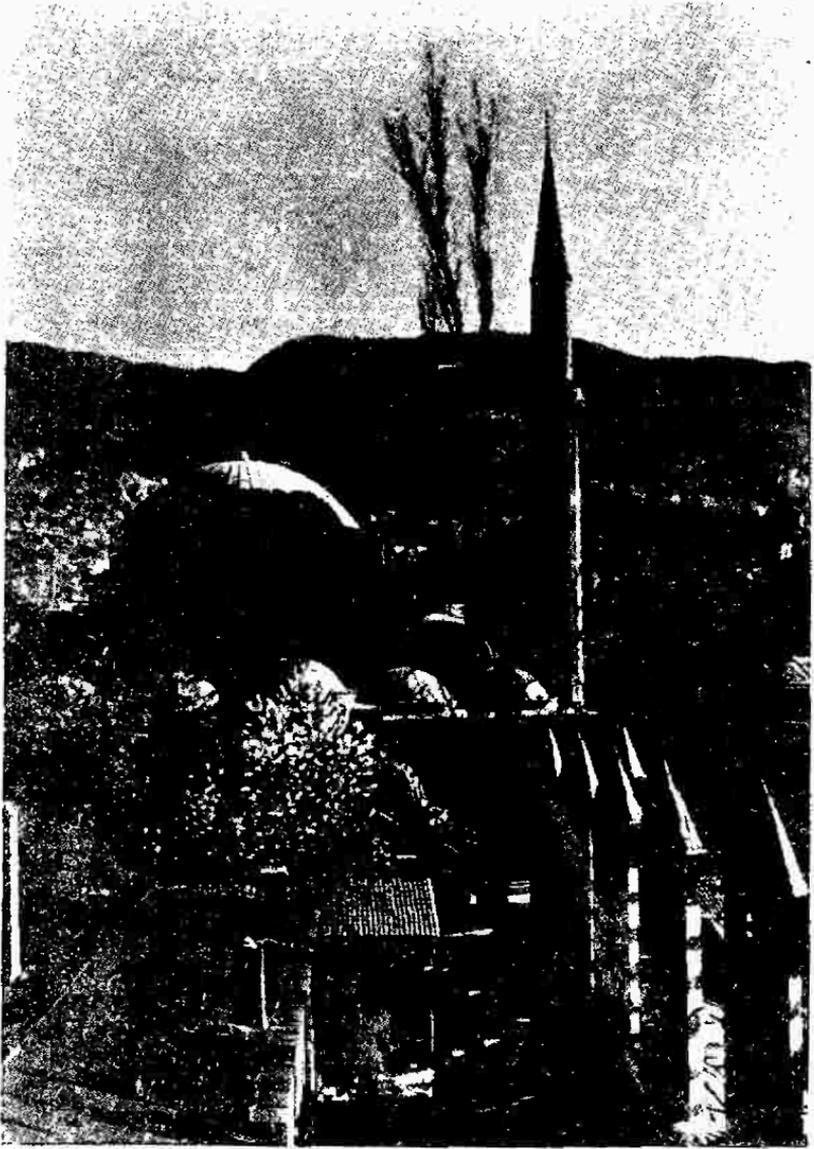
قلت هو لم يقل لي إنه سيفعل ذلك، ولكنني فوجئت مثلكما بما فعل.. وعلى العموم هل شعرتم أو أحسستم أنه غير مهذب؟ قالوا.. لا هو مهذب جدًا، وقد عرفناه جيدًا عندما قضينا معه يوم أمس على البلاج في الأدرياتيك.

إذن لماذا تغضبان؟... هذه عاداتهم ونحن مجرد ضيوف.

استغرقت رحلتنا بالطائرة من تيتوجراد عاصمة جمهورية الجبل الأسود.. (مونتيجرو) إلى بلجراد العاصمة حوالي الساعة، استطعت خلالها أن أتعرف على ملامح يوغوسلافيا من كتيب صغير معي.

تتكون يوغوسلافيا من ست جمهوريات اشتراكية هي البوسنة والمهرسك، وعاصمتها سراييفو، وجمهورية الجبل الأسود (مونتجرو) وعاصمتها تيتوجراد، وجمهورية كرواتيا وعاصمتها زغرب، ومكدونيا وعاصمتها سكوبيا، وسلوفينيا وعاصمتها لوبليانا، وصربيا وعاصمتها بلجراد، وهن إقليمين اشتراكيين متمتعين بالحكم الذاتي في إطار جمهورية صربيا هما كوسوفو وعاصمتها برشتينا، وفويفودينا والعاصمة نوفي ساد.

ويوغوسلافيا أسرة اتحادية اشتراكية تقوم على أساس التسيير الذاتي، وهذه الأسرة لها أصول مختلفة فهي تجمع بين شعوب ألبانيا والمجر ويكغاريا ورومانيا وإيطاليا وتركيا، واستطاعت هذه الشعوب أن تتآلف فيما بينها لتكون يوغوسلافيا الدولة ذات السياسة الاشتراكية الخاصة، والتجربة الذاتية الفريدة التي تجمع بين مميزات النظم المختلفة في العالم.. وتوجد ثلاث لغات رسمية هي صرب كروشن، وسلوفينيان، والماسيدونيان، كما توجد الديانتان الإسلامية والمسيحية بمذبيها الأرثوذكسي والكاثوليكي، وهناك بالطبع اللادينون.. ومن الطريف أن هناك طريقتين للكتابة، هناك الحروف اليوغوسلافية وهي قريبة من الكتابة اليونانية، وهناك أيضًا الحروف اللاتينية التي تكتب بها أوربا، وعلى الرغم من وجود هذه التناقضات العديدة إلا أن الشعب اليوغوسلافي عاش ويعيش في سلام دائم وعمل جاد من أجل



مسجد ومدرسة من معالم «سراييفو» عاصمة جمهورية  
البوسنة والهرسك إحدى جمهوريات يوغوسلافيا الست

المستقبل، ويبلغ تعداده الآن حوالي ٢٢ مليون نسمة.

وصلت الطائرة إلى مطار بلجراد عاصمة جمهورية صربيا وعاصمة الجمهوريات الست أيضًا، وسرعان ما تركنا الطائرة واستلمنا حقائبنا وانطلقنا بسيارة المرافق الخاص الذي استقبلنا وكأنه يعرفنا جيدًا، وفي الطريق إلى الفندق بهرتني المباني الكثيرة العالية البيضاء، فكل شيء هنا أبيض ناصع البياض، وحتى اسم بلجراد - بيوجراد كما يقولون بلغتهم - معناه المدينة البيضاء وقد سميت بهذا الاسم منذ عام ٨٧٨ وهي بيضاء فعلا وبخاصة عندما تسطع الشمس وتنعكس على مبانيها وحدائقها الغناء وشوارعها الفسيحة النظيفة، وأخذ مرافقنا يشرح لنا معالم العاصمة، وفي منطقة هادئة أشار إلى قصر صغير قائلاً.. هذا هو البيت الأبيض الذي كان الزعيم الراحل تيتو يستقبل فيه ضيوفه، وهو غير بيته الخاص، قلت مبتسماً أنتم تملكون بيتاً أبيض كما هو الحال في أمريكا، فرد ضاحكاً.. بالضبط وهل يوجد فرق بيننا؟ ها... ها.. ها.

وتتمتع بلجراد بموقع ممتاز إذ هي تطل على ضفاف نهرى السافا والدانوب وتزخر بحياة ثقافية وفنية واجتماعية غنية، وفي الجزء القديم منها مجموعة من المتاحف والمؤسسات الثقافية، والشوارع ذات الطابع القديم المحفوظة بتراثها الشعبى ومعالمها التي تعود إلى آلاف السنين.

بعد جولة سريعة في المدينة البيضاء ببلجراد وصلنا إلى فندق (ماجستيك) واسترحنا ثم تناولنا الغداء وودعنا المرافق على وعد بلقاء في المساء لجولة أخرى ومزيد من المعرفة ببلجراد.

كانت السهرة في حي (اسكى دار) المعروف باسم اسكدرالله، وهو حي قديم وسط بلجراد يهرع إليه أهل المدينة والسياح للتمتع بعبق التاريخ والحياة الكلاسيكية، والبعد عن مظاهر المدينة الحديثة والعيش ساعة أو ساعتين أو أكثر ببساطة القدماء، الحي يتوسطه شارع طويل يختلف عرضه من منطقة لأخرى وفيه فعلا تحس بالتاريخ وبجانب المقاهى والمطاعم وأكشاك الساندوتش السريع أو شئ الذرة وصناعة الفيشار توجد المتاجر التى تبيع التماثيل الأثرية والهدايا التذكارية، كما يوجد أماكن خاصة ومسرح لهواة الموسيقى، وتأتى فرق خاصة للعزف إلى وقت متأخر من الليل مرتين كل أسبوع يومى الإثنين والخميس، لىتمتع زواد الحي بالموسيقى الفولكلورية الشعبية بالمجان، وعلى امتداد الشارع والحي تنتشر الأرائك النظيفة لىستريح الناس، وقد احتفظ الحي بكل ملامحه القديمة من أرض وبناء وحتى الإضاءة المباشرة فى وسط الطريق تدل على ذلك، وهناك باعة جائلون يبيعون الفستق والنقل ويرتدون الملابس المزركشة القديمة التى تميز أصل كل منهم قبل أن يصبح مواطناً يوغوسلافياً، وطبيعى أن يزدحم الشارع بالناس من كل مكان، من يوغوسلافيا بلدهم ومن كل بلاد العالم

يسمعون الموسيقى ويشاهدون الرقص الشعبي، ويتناولون الأطعمة الشعبية وبخاصة شيش كباب، وحى اسكدرالله يذكرك على الفور بأحيائنا الشعبية في مصر مثل حى الحسين في القاهرة، وحى المرسى أبو العباس في الإسكندرية وغيرها مع شيء من الاهتمام الزائد بالنظافة والسياحة والطابع القديم الذى يتميز به.

وبلجراد (المدينة البيضاء) مدينة قديمة وجديدة أيضاً فتاريخها يعود إلى سبعة آلاف سنة، وقد عانت ما لم تعانه مدينة أخرى من ويلات الحرب والدمار فقد تحطمت خلال تاريخها أربعين مرة، واستطاعت أن تعيش مرتدية أثواباً جديدة من البناء والعمران، وهى تعترف بأنها تعيش منذ ٣٧ سنة وأكثر بلا حرب فى سلام دائم، فى سلام من أهوال الحرب إلا أن الطبيعة لا ترحمها فأحياناً تتور وتعربد وتعلو وتهبط وتدمر كل شيء عن طريق الزلازل والبراكين المخيفة والهزات الأرضية العديدة، وهناك آثار كثيرة للزلازل مازلوا يحتفظون بها حتى الآن فترى حفرة كبيرة فى الأرض قد انقلبت فيها الأشجار والأحجار وأخذت شكلاً غير عادى أو بيتاً بلغته الأرض وغير ذلك.

وقد استطاع اليوغوسلاف أن يعيشوا فى سلام مع العالم ولكنهم ما زالوا يحاربون ضد الطبيعة للقضاء على الزلازل والبراكين بقدر الإمكان، وعن طريق الدراسات المختلفة، وتعكس حالة السلام التى يعيشها ويتمتع بها شعب يوغوسلافيا السبب فى

الحب الكبير لزعيمهم الراحل تيتو، ففي كل مكان تجد صورة الزعيم تيتو تتصدر المحتويات فهو الذى جمع شمل كل هذه الجنسيات تحت راية واحدة وطنية، وهو الذى دافع عن بلاده، وحقق لها سياسة مستقلة، وهو بطل الحرب والسلام، كما أنه واحد من الزعماء الذين وضعوا وخططوا لسياسة عدم الانحياز مع الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر والرئيس الهندى جواهر لال نهرو، ولزعامة تيتو الفذة وحبه للسلام وخدمة بلاده فإنهم ما زالوا يحتفظون بصوره وقائيله وسيرته العطرة لا فى مكاتبهم وبيوتهم وحسب بل فى قلوبهم أيضا، ولا شك أنه أهل لذلك.

## ( ٥ )

استطاع الزعيم تيتو بقوة شخصيته وذكائه وحب الجماهير له أن يحافظ على بلاده ويحقق لها الأمن والوحدة والسلام، وبعد رحيله فى شهر مايو سنة ١٩٨٠ تساءل المعلقون هل ستستمر يوغوسلافيا فى سياستها وأمنها وسلامها... أو سيتغير الموقف بعد رحيل القائد والزعيم الذى وحد شعوب بلاده وقومياتها على رغم الاختلافات القومية الأصلية فيما بينها؟.

والواقع أن منطقة البلقان، التى تشمل ست دول هى اليونان. تركيا. ألبانيا بلغاريا. رومانيا. ويوغوسلافيا تشبه - كما يقول

المحللون السياسيون - برميل البارود الذي يمكن أن ينفجر في أية لحظة، فالخلافات حول الأرض والحدود قائمة دائماً بينهم، كما أن الاختلافات الأيديولوجية تساعد على وجود النزاع من حين إلى آخر، وعلى سبيل المثال فإن اليونان تقول إن جزءاً من أرضها الآن تحت سيطرة ألبانيا، وإن هناك بلاداً بأكملها تحت الحكم الألباني وإنما مازالت تحمل أسماءً يونانية مثل «جيروكاسترا» وهي المدينة التي ولد فيها الرئيس الراحل أنور خوجا رئيس ألبانيا، ويقول اليونانيون إن أصل الأسم في اللغة اليونانية هو «أرجيروكاسترا» ومعناه القصر الفضي، ومدينة ساراندا الألبانية الآن يقولون عنها أيضاً إنها يونانية ومعنى اسمها الأربعون المقدسة، ويقصد بها صوم عيد القيامة عند المسيحيين، المهم أن هذا مثل للخلافات الموجودة بين اليونان وألبانيا، وهناك خلاف على الأرض أيضاً بين يوغوسلافيا وبلغاريا وخلاف آخر بين اليونان وتركيا وهكذا.. غير أن أحدث هذه الخلافات التي ظهرت واضحة جلية بعد رحيل تيتو هو الخلاف والنزاع بين يوغوسلافيا وألبانيا على إقليم «كوسوفا» الذي يقع تحت السيادة اليوغوسلافية وتبلغ نسبة العنصر الألباني فيه تسعين في المائة تقريباً، وبين الحين والآخر تطير وكالات الأنباء العالمية أنباء مختلفة عن هذا الإقليم تتم عن اضطرابات ومظاهرات والقبض على بعض الشباب وسحبهم أو ضربهم بالرصاص.

في بلجراد العاصمة البيضاء حاولت التعرف على هذه المشكلة عن قرب، وقد أعد المسئولون لي رحلة إلى هذا الإقليم «كوسوفا» لزيارته ومقابلة المسئولين فيه، لكن ظروف الطقس لم تسمح بالزيارة فقد كان سيئاً للغاية، ومع ذلك فقد قابلت في مبنى وزارة الخارجية في بلجراد السيد (نيازي ديستاريفتش) رئيس الشؤون الخارجية في البرلمان اليوغوسلافي، واستمرت المقابلة أكثر من ساعتين حول هذه المشكلة وبعض المشاكل الأخرى... وكانت مفاجأة لي أن أسمع الرجل يتحدث إلى باللغة العربية، بل وباللهجة المصرية، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان يعمل في مصر قنصلاً لسفارة يوغوسلافيا في عام ١٩٥٢.

كان السؤال الذي يفرض نفسه ويلح على هو ماذا عن يوغوسلافيا بعد تيتو؟ هل تستمر في أمن وسلام أو هناك أحداث جديدة أو مشاكل معينة؟

منذ الستينات كان الرئيس تيتو يتخذ كل الخطوات للاستمرارية بعده، وبدأ بتأمين كل العوامل لاستمرارية الثورة، ومع أن رحيله كان شيئاً حزيناً لنا، لكن كل شيء كان واضحاً وانتقلنا بعده دون أية مشكلة تتعلق برحيله.. والقيادات الموجودة الآن كان هو الذي اختارها بنفسه، بل والدستور الذي نعيش في ظله الآن شارك هو في وضعه عام ١٩٧٤.

وماذا عن مشكلة «كوسوفا» ولماذا ظهرت واضحة على السطح

بعد وفاة تيتو؟ مشكلة إقليم كوسوفا نشأت نتيجة أخطاء قادتها في السنوات العشرة الأخيرة وكان الخطأ الرئيسى فى التخطيط غير السليم فلم تؤمن القيادات العمل للأجيال القادمة الجديدة، ولم تكيف النظام الدراسى مع حاجة المجتمع، فتكونت نتيجة لذلك الكوادر التى لا تجد العمل المناسب، والألبانيون لا يتعلمون إلا لغتهم وحسب وهى اللغة الألبانية، وعندما يصلون إلى سن العمل لا يستطيعون إيجاد عمل مناسب إلا فى إقليمهم فقط ومن هنا نشأت المشكلة، أما إذا استطاع أى مواطن ألبانى التحدث بلغة أخرى مع لغته الألبانية فإنه يتمكن من إيجاد عمل فى أى إقليم آخر، فيوغوسلافيا واسعة، لكنهم يفضلون التفرغ فى إقليمهم وفى نطاق لغتهم.

وكيف ظهرت المشكلة إذن فى السنوات الأخيرة؟

كان من الطبيعى أن تكون الجامعة هى مصدر الحوادث والشغب، وذلك لأن الطلبة لا يجدون أملاً فى العمل بعد التخرج وينظرون لمستقبلهم فيجدونه غامضاً ضائعاً ومن هنا قامت بعض المظاهرات.

وما هو موقف الحكومة المركزية اليوغوسلافية؟ ألم تشارك قادة إقليم كوسوفا فى نفس الأخطاء؟

بالطبع أخطأت الحكومة المركزية فى عدم انتباهها إلى ما يحدث

في منطقة كوسوفا في السنوات الأخيرة فمنذ عام ١٩٤٨ اتجهت  
ألبانيا وهي الدولة المجاورة لنا والتي نرتبط معها بحدود واحدة،  
اتجهت إلى العداء مع يوغوسلافيا، بالعداء لسياستها الداخلية  
والخارجية، ودأبت ألبانيا على نشر رأيها المعارض والمعادي لنا  
سواء في صحفها أم من إذاعتها، ولم تكن نرد عليها إلا نادراً،  
فقد كنا مهتمين باستقلال ألبانيا عن سياسة السوفيت ثم عن  
الصين منذ الستينات، والغريب أنها ركزت على مهاجمتنا وإذاعة  
أحاديث من إذاعتها إلى الألبان داخل يوغوسلافيا للتأثير عليهم  
وتشجيعهم على الاستقلال عن يوغوسلافيا.

وماذا يريد الألبان الذين يعيشون داخل يوغوسلافيا والذين  
يقومون من حين إلى آخر بمظاهرات وإحداث شغب؟

هدف المظاهرات هو البحث عن مستقبل مستقر للشباب  
وإيجاد العمل المناسب لهم بعد المشكلة التي خلقتها القيادة بعدم  
التخطيط السليم.. وهناك هدف آخر هو الاستجابة للإعلام  
الألباني الصادر من ألبانيا، فألبانيا تريد أن يستقل إقليم كوسوفا  
بنفسه، وربما إنه على حدود دولة ألبانيا فيمكن بعد أن يحقق  
الاستقلال الانضمام إلى ألبانيا نفسها، ولكن هذا لن يحدث فلم  
يطالب الألبان اليوغوسلاف بالاستقلال أو بتكوين جمهورية، وهم  
يتمتعون بكل الحقوق والواجبات ولهم مدارسهم الخاصة وجامعتهم  
وصحفهم ومجلاتهم وإذاعتهم أيضا بل ومحاكمهم الخاصة بالإضافة

إلى لغتهم التي يتحدثون بها، ولهذا فهم يتمتعون بكل حقوق المواطنة من الدرجة الأولى، و(برشتينا) عاصمة كوسوفا تقدمت في العشرين سنة الأخيرة أكثر من (تيرانا) عاصمة ألبانيا ومعدلات التنمية فيها وصلت لدرجة عالية.

وكيف تحل المشكلة إذن؟.

المشكلة تحل إذا تركت ألبانيا الألبانيين في يوغوسلافيا في حالهم ولم تتدخل في شئونهم وكذلك بالتخطيط الديمغرافي والصناعي اللازم وإيجاد فرص العمل والحياة الكريمة اللاتقة بالشباب الألباني في كوسوفا، كذلك بضبط التناسل في الإقليم إذ أن نسبة أذدياد السكان في إقليم كوسوفا هي أعلى نسبة زيادة في أوروبا وهذا يعقد المشكلة أكثر، ونحن لا نرى تحديد النسل ولا تطالب به إلا إذا كان نتيجة رغبة السكان أنفسهم، أما الحل فهو - كما قلت - بالتخطيط العلمي.

ولماذا لا تتفاهمون مع جارتكم ألبانيا في هذه المشكلة؟

إقليم كوسوفا جزء من يوغوسلافيا ومشكلته هي مشكلة يوغوسلافية بحته، والحكومة الألبانية عندما تتحدث عن المشكلة فهي تتدخل - للأسف - في شئون يوغوسلافيا الداخلية والخارجية، ونحن لا نسمح لأحد بذلك.

هذا هو رأى يوغوسلافيا في المشكلة، وهو رأى وجيه بالطبع.

ولكن بحثاً عن الموضوعية يجب أن نعرف الرأي الآخر وهو رأى ألبانيا، فألبانيا تقول إنها لا تتدخل في شئون يوغوسلافيا ولكن إقليم كوسوفا يعيش فيه مواطنون ألبان مائة في المائة وهم يتحدثون باللغة الألبانية، ويرتبطون برباط الدم مع شعبهم، وعلى هذا فإن ألبانيا لا توافق على القبض على بعض الشباب من كوسوفا وسجنه بل وقتله لمجرد طلب الاستقلال وهذا حقهم.

ومشكلة كوسوفا هي صورة مصغرة للمشاكل الكثيرة الموجودة في برميل البارود، وأقصد بلاد البلقان.

وسألني السيد (ديستاريقتش) رئيس الشؤون الخارجية في البرلمان اليوغوسلافي في نهاية حديثي معه عن أخبار مصر؟

قلت... مصر دائماً بخير والحمد لله، ونحن لا نستطيع أن ننسى علاقات الصداقة القوية بين بلادنا وبين يوغوسلافيا، كما أن الشعب المصري يذكر بفخر الصداقة الشخصية التي كانت بين الزعيمين جمال عبد الناصر وتيتو، ومساعدة الرئيس تيتو لنا في حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣ - حرب رمضان - في أثناء عملية الثغرة.

وابتسم الرجل قائلاً.. حقيقة إن الصداقة بيننا قوية متينة وإن تعرضت بعد اتفاقية (كامب ديفيد) للفتور إلا إننا وإن اختلفنا معكم في عملية السلام مع إسرائيل لكننا نقدر الصداقة ونحترم

سيادتكم الخاصة ونبقى على الصداقة بالرغم من الاختلاف،  
وأمامنا عمل كبير موحد لدعم حركة عدم الانحياز واتخاذ اللازم  
لوقف عدوان إسرائيل واعتداءاتها المتكررة بين الحين والآخر  
والتي تهدد أمن وسلام الشرق الأوسط بل والعالم كله<sup>(١)</sup>.

#### ملاحظة هامة:

هذه الرحلات كانت بين السنوات ١٩٧٨ و ١٩٨١ ومن  
الطبيعي أن تكون الحكايات خلال هذه السنوات ولاشك أن هناك  
تغيرات كبيرة حدثت بعد ذلك في هذه الدول.. تغيرات سياسية  
وأيدولوجية وحتى في الأسعار التي تقفز بين يوم وليلة.. وتبقى هذه  
الرحلات والحكايات وثيقة تاريخية هامة لهذه الدول.

---

(١) بعد زيارتي ليوغوسلافيا عام ١٩٨١ ومقابلتي لرئيس الشئون الخارجية في البرلمان  
عادت علاقات الصداقة القوية بين مصر ويوغوسلافيا واستطاع الرئيس حسني مبارك أن  
يجعلها كما كانت دائما، وزاد من قوتها تبادل زيارات الرؤساء والوفود للبلدين، وهذا تطور  
طبيعي بين بلدين صديقين وشعبين يؤمنان بعدم الانحياز.